الباب الأول

التشبيه والتمثيل

التشبيه والتمثيل

أولا : معناهما فى اللغة :

التشبيه هو التمثيل : يقال : شبهه إياه وبه تشبيها : مثّله ، فالشّبه والشّبه والشبيه : كالمِثْل والمَثَل والمثيل وزنا ومعنى .

ثانيا : فى الإصطلاح البلاغى :

(أ) التشبيه

عرف البلاغيون التشبيه فقالوا : هو إلحاق أمر بأمر ، فى صفة مشتركة بينهما ، بأداة ملفوظة أو ملحوظة ، لغرض يقصده المتكلم .

ثم فصلوا هذا التعريف فقالوا : الأمر الملحق يسمى (مشبها) ، والأمر الملحق به يسمى (مشبها به) ، والصفة المشتركة بينهما ، والتى تضمهما فى إطار واحد تسمى (وجه الشبه) ، والأداة هى الكاف ونحوها ، وهى التى تربط بين المشبه والمشبه به !!

ومن ثنايا هذا التعريف يتبين أن للتشبيه أربعة أركان : المشبه – المشبه به – وجه الشبه – أداة التشبيه .

فأما المشبه والمشبه به : فيطلق عليهما (طرفا التشبيه) ، ولكى يكون التشبيه اصطلاحيا لابدّ من تماثلهما فى صورة وجودية ، تنطق بالتشبيه وتدل عليه .. نعم !! قد يحذف المشبه للعلم به ، ولكنه فى ملحوظية السياق كالملفوظ ، فإذا سألت : كيف صلاح الدين ؟ فقيل لك : (كالأسد إقداما) فإن التقدير : هو كالأسد إقداما .. ومن ثم نلحظ المشبه موجودا وليس بمفقود .

وأما وجه الشبه : فهو يعنى الصفة التى يشترك فيها الطرفان ، أى المشبه

والمشبه به ، ويلزم أن تكون هذه الصفة متحققة فى المشبه به بصورة أقوى وأظهر منها فى المشبه ، لأن مقتضى الأمر أن يكون الملحق به أقوى فى حيثيته من الملْحَق ..

وأما أداة التشبيه : فهى كل لفظ دل على المشابهة ، وهى : إما حرف كالكاف وكأن ، وإما فعل نحو ، شابه وماثل وحاكى ، ويشابه ويماثل ويحاكى ، وإما اسم نحو ، شِبْه ومِثل ومحاك .

هذا وقد تحذف الأداة ، أو وجه الشبه ، أو هما معا ، لفظا لا تقديرا . لكن مما ينبغى أن نلفت إليه الأذهان : أن التشبيه الذى حذفت بعض أركانه ، يكون أدخل فى باب البلاغة والبيان ، من التشبيه الذى ذكرت أركانه فى العبارة ، لأن الأول يقتضى من الباحث مزيدا من كدّ الذهن ، وإعمال الخاطر ، حتى يضع يده على التشبيه ، ويقف على سره البلاغى ، أما الثانى فلا يحوج إلى شىء من ذلك ..

ولكى نزيد الأمر وضوحا ، إليك هذه الطائفة من الأساليب :

(أ) قال الشاعر :

أنت كالبحر فى السماحة والشمس علوا والبدر فى الإشراق

وقال آخر :

كأن أخلاقك فى لطفها ورقة فيها نسيم الصباح

وقال آخر :

يا شبيه البدر حسنا وضيـــاء ومنـــالا
يا شبيه الغصـن لينا وقوامـــا واعتـدالا

(ب) وقال تعالى :

﴿وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام﴾ .. (الرحمن : ٢٤) ..

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ..﴾ .. (الحديد : ٢١) ..

وقال ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وقال الشاعر :

أنت نجم فى رفعة وضياء تجتليك العيون شرقًا وغربا

(جـ) وقال تعالى : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ .. (الحجرات : ١٠) .

وقال : ﴿وجعلنا الليل لباسا﴾ .. (النبأ : ١٠) ..

وقال : ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ .. (البقرة : ١٨٧) .

وقال : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب﴾ .. (النمل : ٨٨) .

وقال الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

فالتشبيهات فى المجموعة (أ) واضحة جلية ، لا تستدعى للوقوف عليها ، إطالة فكر ، أو إدمان نظر ، والسبب فى ذلك وجود أركان التشبيه جميعا فى العبارة ..

أما التشبيهات فى المجموعة (ب) فقد حذف وجه الشبه فى بعضها ، وحذفت الأداة فى بعضها الآخر ، فهى وإن كانت أقل وضوحا من سابقتها ، لعدم استكمال أركان التشبيه ، لكنها أقوى منها بلاغة ، لأن المشبه فيها جُعل كأنه عين المشبه به .

أما المجموعة (جـ) فقد حذف فيها الوجه والأداة معا ، على وجه ينبئ أن المشبه به خبر عن المشبه ، أو فى حكم الخبر ، أو مصدر مبين للنوع ، أو أن

المشبه به مضاف للمشبه . وهذا النوع من التشبيه يتبوأ من البلاغة أكرم المنازل ، ويتسامى إلى أرفع الدرجات ، لأن المشبه فيه يصير عين المشبه به دون تفاوت ، وفى هذا من المبالغة الطريفة ، ما يخلع على الأسلوب إشراقا وبهاء ..

* * *

ويسمى التشبيه الذى ذكرت فيه الأداة ، (مرسلا) ، والمحذوف منه الأداة (مؤكدا) ، وما ذكر فيه وجه الشبه (مفصلا) ، وما حذف منه وجه الشبه (مجملا) ، وما حذف منه الأداة والوجه (بليغا) .. .

(ب) التمثيل

تناوشت المذهبية التشبيه التمثيلى ، واحتكت حوله الآراء ، واشتجر فى مفهومه الخلاف ، حتى أفرزت المدارس البلاغية تعريفات شتى ، لهذا الفن البيانى الجميل ، ابتداء من إمام البلاغة « عبد القاهر الجرجانى » ، وانتهاء بالإمام « الخطيب القزوينى » .. ويحسن أن نعرض – بإيجاز – لأبرز ما تمخّضت عنه قرائح أعلام البلاغة ، من آراء حول مفهوم التشبيه التمثيلى :

أولا : رأى عبد القاهر الجرجانى .ت ٤٧١ هـ :

قسم إمام البلاغة « عبد القاهر » التشبيه من حيث وجه الشبه إلى قسمين : أحدهما : غير تمثيلى ، وثانيهما : تمثيلى ..

أما التشبيه غير التمثيلى :

فهو : ما كان وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه ، لا يحتاج فيه إلى تأويل وصرف عن الظاهر ، لأن المشبه مشارك للمشبه به فى نفس وجه الشبه وحقيقته ، لا فى مقتضاه ولازمه وهذا المعنى يتحقق فى أمرين :

الأمر الأول : أن يكون وجه الشبه حسيا ، أى يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، فيكون من المبصرات ، أو المسموعات ، أو المشمومات ،

أو المذوقات ، أو الملموسات .. ولا يضير بعد ذلك أن يكون الوجه مفردا أو مركبا ..

الأمر الثانى : أن يكون وجه الشبه (غرزيا طبعيا) ، فإن الغرائز والطباع ، وإن كانت عقلية ، لأنها لا تدرك بالحواس ، لكنها تلحق بالحسيات ، لأنها حقائق متقررة ثابتة ، نعلمها فى المشبه به ، كما نعلمها فى المشبه ، كالشجاعة والجبن ، والكرم والبخل ، والذكاء والغباء ، إلى غير ذلك من الكيفيات النفسية .

وأما التشبيه التمثيلى :

فهو : ما لا يكون وجه الشبه فيه أمرا بينا بنفسه ، بل يحتاج فى تحصيله وإدراكه إلى تأول وصرف عن الظاهر ، لأن المشبه غير مشارك للمشبه به فى حقيقة وجه الشبه ، وإنما فى مقتضاه ولازمه ، سواء كان الوجه مفردا أو مركبا !!

والمثال على ذلك قولهم : « ألفاظه كالعسل فى الحلاوة » ، فإن « الحلاوة » وجه شبه ظاهرى فقط ، لأن الشبه به وهو العسل يوصف بالحلاوة على سبيل الحقيقة ، أما الشبه وهو الألفاظ فلا يوصف بها إلا على سبيل التأويل ، وذلك بإرادة ما تستلزمه الحلاوة ، من قبول النفس للشىء ، وحسن وقعه فيها ، وليس كذلك الحس ، فالذى يشبه الخدود بالورود فى الحمرة ، يرى الحمرة فى المشبه ، كما يراها فى المشبه به ، دون أن يحتاج إلى تأويل ..

ضابط الأمر : أن ما كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزى ، فهو تشبيه تمثيلى ، وما عدا ذلك ، فهو تشبيه غير تمثيلى ، ولا يضيرنا – بعد ذلك – أن يكون الوجه مفردا أو مركبا .. ومن هنا : رأى عبد القاهر : أن التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا ..

ثانيا : رأى الزمخشرى . ت ٥٣٨ هـ :

يذهب صاحب الكشاف – وهو إمام لغوى جهبذ – إلى أن التمثيل يرادف

كلمة التشبيه فى المعنى ، فكل ما يصدق على كلمة « تمثيل » من معنى ، يصدق على كلمة « تشبيه » ، وكل ما يصدق على كلمة « تشبيه » من معنى ، يصدق على كلمة « تمثيل » ..

ثالثا : رأى السكاكى . ت ٦٣٦ هـ :

التشبيه عند السكاكى – صاحب المفتاح – يتفرع إلى قسمين : تشبيه تمثيلى ، وغير تمثيلى ..

فالتشبيه التمثيلى عنده : ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا غير غرزى ، أى لا يتعلق بالغرائز والطباع ، والكيفيات النفسية ، ومن ثم ، فإن السكاكى يتفق مع عبد القاهر ، فى أن الأمور الغرزية لا يصلح واحد منها للتشبيه التمثيلى .

والتشبيه غير التمثيلى عنده : ما كان وجه الشبه فيه على خلاف ذلك ، وهذا يشمل وجه الشبه ، إذا كان عقليا حقيقيا (غرزيا) ، أو كان عقليا غير غرزى لكنه مفرد ، وكذا جميع الحسيات مفردة كانت أو مركبة ، فكلها خارج عن نطاق التشبيه التمثيلى ..

رابعا : رأى الخطيب القزوينى . ت ٧٣٩ هـ :

كان للخطيب القزوينى – صاحب كتاب الإيضاح – رأى متفرد وجيه ، فى مفهوم التشبيه التمثيلى ، اعتبر به فارس الحلبة ، فى هذا السباق العلمى ، وذلك التزاحم الفكرى ..

فقد نوع الخطيب التشبيه من حيث وجه الشبه إلى نوعين : تشبيه تمثيلى ، وآخر غير تمثيلى ..

فالتشبيه التمثيلى لديه : ما كان وجه الشبه فيه وصفا منتزعا أو هيئة منتزعة من متعدد أمرين أو أمور ، سواء كان ذلك الوجه حسيا أم عقليا ..

والتشبيه غير التمثيلى عنده ما كان وجه الشبه فيه ، على خلاف ذلك .

وهذا متحقق فى كل تشبيه ، يكون فيه وجه الشبه مفردا ، سواء كان الوجه حسيا أم عقليا ..

وهذا الرأى من الخطيب القزوينى : هو أولى الآراء بالقبول ، وأجدرها بالاعتبار ، فإن كثيرا من الصور الحسية تحتاج إلى إعمال الفكر ، وقدح زناد الروية والعقل ، لكى يُؤلف بينها ، ويُجمع بين وحداتها ، فهى تتطلب قدرا من المعاناة والجهد ، أكثر مما تتطلبه بعض الصور العقلية ، ولهذا أدخلها القزوينى ، فى نطاق التشبيه التمثيلى ، وكان فى هذا مسدّدا ومصيبا ..

ولذا ، فسنأخذ أنفسنا بمنهج الخطيب القزوينى ، فى تصوره الدقيق للتشبيه التمثيلى ، وسنجعل رأيه – فى هذا الباب – حكَمًا لا ترد حكومته .. فإليك من رياض التشبيه التمثيلى طاقات ندية ، نبرز ما فيها من جمال بلاغى يأخذ بالألباب !! !

١ – قال تعالى :

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ..﴾ .. (النور : ٣٩) . المشبه : هيئة أعمال الكفار ، وقد تبدت لهم فى صورة جميلة خالبة ، فشاموا منها الخير ، وارتقبوا النفع ، لكنها خسران وضياع ، إذ لا ثمرة لها ، ولا ثواب عليها ..

والمشبه به : صورة السراب اللامع البراق ، بصحراء واسعة ، يظنه الرائى المحرور ماء ، فيجهد نفسه ويعنيها ، ويذهب إليه ، فلا يجد شيئا مما داعب خياله ، وبرق فى وجدانه ..

ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الأمل المطمع والنهاية الفاجعة المؤيسة . والنص الذى بين أيدينا : يصور حالة نفسية ، لمحرور وهان ، يسير فى هجير الصحراء وقيظها ، قد اشتد به العطش ، وفجأة ، يلمح سرابا يترقرق أمامه ، فيتخيله ماء ، وهنا يداعبه أمل باسم بهيج ، فيجهد نفسه ويدفعها ركضا ، نحو

ما تصوره ماء ، حتى إذا أشرف عليه ، وانتهى إليه : وجد سعيه قد خاب ، وسهمه قد طاش ، ولم يلف هناك إلا الحسرات المبيرات ، وأنواع العذابات المهلكات !!

ترى !! أى عذاب نفسى يحيط بهذا الإنسان المخدوع ؟ وأى وحشة قابضة تستبد به وتهيمن عليه ؟ ليجهد الخيال نفسه كيفما شاء ، فإنه لن يتصور حقيقة الإحباط ، الذى أصاب هذا الظامئ المحرور .. والتعبير بقوله : « الظمآن » : فيه لفتة بارعة ، لأن الظمآن أشد حرصا على الماء ، وطلبا له ، وأكثر الناس تهافتا عليه ، لأن فيه حياته ، ومن ورائه يبغى نجاته ، ولو قيل : « يحسبه الرائى » : لما أعطى السياق هذه اللمحات التى أشرنا إليها .. فانظر إلى روعة النظم القرآنى .

والتعبير بقوله : « حتى إذا جاءه » : فيه لفظ « حتى » يثير أحاسيس عديدة ، لرحلة شاقة مجهدة ، يرقب صاحبها أن يروى ظمأته ، وينقع غلقه ، فهو الصادى المعنى .. ثم تأتى : « إذا وهى للمفاجأة ، لتعطى للأمل والرجاء مساحة أكبر ، حيث يزداد التطلع ، وتتلاحق الأنفاس ، وتتواثب الأمانى ، والفعل « جاءه » هو الذى يمنح الإحساس بكل ذلك ، لأن هناك تشاطرا بين الفعل (جاء) وصاحبه ، وبين « الهاء » التى يراد بها الماء المتوهم أو السراب الخادع .

إن معنا راغبا ومرغوبا فيه ، وقاصدا ومقصودا إليه ، وحياة الراغب والقاصد مرهونة بالمرغوب فيه ، والمقصود إليه !! ترى !! كيف تكون حرارة المشاعر النفسية وترقبها والحال كما ذكرنا ؟

ثم تأتى نهاية المشهد ، إنها مفاجأة قاصمة ، لم تكن فى الحسبان ، لهذا الإنسان المؤمل المكدود ، لم يظفر بشىء أى شىء ، « لم يجده شيئا » إن « لم » هنا : زرعت اليأس ، وأنذرت بالقنوط ، وأزاحت الأمل .. ثم أتى دور الهاء فى قوله : « لم يجده » ، فقد اتصلت بالفعل « جاءه » قبل ذلك ،

لتصور أملا يلتصق بالجوانح ، ويداعب الذات .. أما هنا وفى قوله : « لم يجده » فإنها قد جسمت يأسا قاتلا ، وأبرزت حسرة مردية ، ثم تأتى كلمة « شيئا » ، لتثبت – بعد وقوعها فى سياق النفى – أن هذا الإنسان ضاع منه كل شىء ، ولم يحصل على شىء أى شىء !!

هذا نموذج قرآنى بارع للتشبيه التمثيلى ، أطلنا الحديث فيه ، لتدرك – بثاقب نظرك – روائع البلاغة الكامنة ، فى أساليب التشبيه التمثيلى ، وبخاصة عندما تكون من عطاءات القرآن الكريم ، نبع البيان القادر ، وموئل الفصاحة ، وذروة النظم البديع .. ولعلك واجد فى هذا النص القرآنى الكريم ، وقد حللناه هذا التحليل البلاغى ، ما يعينك على الوقوف على الأسرار والنكات ، والأغراض والإيحاءات ، التى تفيض بها التشبيهات التمثيلية ، وهى كثيرة متنوعة ، تواتى – فى يسر – مَنْ رُزق بصيرة كاشفة ، ومنح ذوقا بلاغيا سليما ، وكانت له وقفات متأنية مع النصوص ، نثرية وشعرية .

٢ – وقال تعالى :

﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ..﴾ (الجمعة : ٥) ..

المشبه هو : حال أحبار اليهود ، وقد حملوا التوراة وقرءوها ، وحفظوا ما فيها ، ولم يعملوا بها ، ولا انتفعوا بآياتها .

والمشبه به هو : حال حمار يحمل أسفارا هى أوعية العلوم ، ومتودع ثمر العقول ، وهو جاهل بما فيها ، ولاحظ له منها إلا ما يكدّه ويتعبه .

ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من شقاء كلٍّ ، باستصحاب ما يتضمن المنافع العظيمة ، والفوائد الشريفة ، من غير أن يحصل على شىء من تلك المنافع ، أو يتحقق له بعض تلك الفوائد ..

٣ – وقال الشاعر :

وإن من أديتـــه فى الصـــبا كالعود يسقى الماء فى غَرسه
حتى تـــراه مورقانـــا ضـــرا بعـد الذى أبصرت من يبسه

المشبه هو : الصبى يُتعهد بالتربية والتأديب والتوجيه فى صباه .

والمشبه به هو : العود يغرس صغيرا ، ويُتعهد بالسقى ، وبكل ما يصلحه ، مما يجعله ينمو ويستوى على سوقه ..

ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من أن كلا منهما ، يجدى فيه العلاج ، ويثمر فيه التعهد ، ويصل به إلى الكمال المنتظر منه ، لوضعه فى موضعه ، ومصادفته وقته ..

٣ – وقال أبو فراس الحمدانى :

والمـــاء بفصـــل بين زهـ ـر الروض فى الشطين فصـلا
كبســاط وشـــى جـــردت أيدى القيون عليـــه نصـلا

(القيون : جميع قين ، وهو الحداد – النصل : حديدة السهم وحد السيف) .

المشبه هو : حال ماء الجدول ، وهو ينساب بين روضتين على شاطئيه ، وقد وشاهما الزهر بألوانه الرائعة ..

والمشبه به هو : حال سيف لماع ، لا يزال فى بريق جدته ، وقد سلّه القيون على بساط أخضر موش مزركش ..

ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من وجود شىء أبيض ، مستطيل ، حوله اخضرار فيه ألوان مختلفة ..

وقال بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(النقع : الغبار ، ومثار : متطاير – تهاوى : تتساقط)

المشبه هو : حال النقع ، والسيوف فيه تلمع وتبرق ، وتعلو وتنخفض فى حركات كثيرة ، إلى جهات مختلفة .

والمشبه به هو : حال الليل المظلم تتهاوى كواكبه ..

ووجه الشبه هو : البيئة الحاصلة من هوىّ أجرام مشرقة مستطيلة ، متناسبة المقدار ، متفرقة فى جوانب شىء مظلم ..

فهذه الأمثلة وما كان على شاكلتها ، مما كان وجه الشبه فيه هيئة عقلية أو حسية ، منتزعة من متعدد : تشبيه تمثيلى عند الخطيب القزوينى ، وعلى هذه الأمثلة : قِسْ ما يطالعك – بعد ذلك – من أساليب ..

أسباب تأثير التشبيه فى النفوس

يقول الإمام عبد القاهر : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه : أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .. فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ..

وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .. وإن كان اعتذارا كان إلى القلوب أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ..

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه »[1] .

ويقول جار الله الزمخشرى : « ولضرب العرب الأمثال : شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبى ، ولأمر ما أكثر الله الأمثال فى كتابه المبين ، وفى سائر كتبه ، وفشت فى كلام رسول الله ﷺ ، وكلام الأنبياء والحكماء ، قال الله تعالى : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ..﴾ .. (العنكبوت : ٤٣) .. ومن سور الإنجيل : سورة الأمثال »[2] ..

---

(١) أسرار البلاغة ص ٩٢ - ٩٦ . بتصرف .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٦ - ٣٧ .

هذا ما سالت به أقلام الأفذاذ من علماء البلاغة ، وهم يتحدثون عن فن التشبيه ، وخاصة التمثيل ، ولقد جاءت أقوالهم فى هذا الباب مشرقة عذبة ، لها سلاسة الماء ، وإسفار الصبح الوضّاء ، وهى فى مجموعها : تبين ما للتشبية من مكانة ، وما له من منزلة ، تجعله يصنع فى النفوس صنيع السحر ، وينشر بين يديها عبقا أندى من الزهر ، وإخاله وهو يزيّن جيد الكلام ، أبهى من عقود الجمان ، فوق صدور الحسان ..

لذلك ، يحق لنا أن نتساءل : ما حيثيات التشبيه التى جعلت له هذا القدر من التأثير ؟ وما أسباب الجمال والروعة فيه ؟ ولماذا كانت له هذه الطاقة من الخلابة والبهجة ، حتى كلف به الأدباء ، ولم يستغن عنه الحكماء ؟

إذا بدا لنا أن نقف على أسباب تأثير التشبيه – وبخاصة التمثيل – فى النفس : فما علينا إلا أن نتصفح أمثلته الزاخرة ، وأساليبه الباهرة التى تمتع النفس ، وتوقد الحس ، وتبهج الوجدان .. ومن خلال ذلك سيتبين لنا ، أن للتشبيه ثلاثة أسباب ، من أجلها كان له هذا الدور التأثيرى البارز فى القلوب والنفوس ..

وإليك هذه الأسباب الثلاثة :

السبب الأول : « أنه ينقل النفس من الخفى إلى الجلى » .

وتوضيح ذلك : أن كثيرا من التشبيهات ينقل النفس عن المعقول إلى المحس ، وعما يعلم بالفكر والروية ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وذلك يوفر لها الأنس بالمعنى ، ويؤكد ثقتها فيه ، ومرجع ذلك إلى سببين :

أولهما : أن العلم المستفاد من طريق الحواس : يفضل العلم المستنبط من جهة العقل والفكر : فى القوة واليقين ، والمتانة والرسوخ ، ومن ثم ، فقل قيل : (ليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين) .

وثانيهما : أن العلم الحاصل من طريق الحواس ، أو من جهة الطبع والضرورة : أسبق إلى النفس ، وأنفذ إليها من العلم المستفاد من طريق العقل

والروية ، لأن العلم يجئ أولا عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة الفكر والعقل ، فكل من الحسى والضرورى ، أمسّ بالنفس رحما ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ..

ومعنى هذا ومؤداه : أن النفس بالمحسوس أكثر عُلقة ، وأرسخ شُبكة ، فإذا نُقل لها المعنوى فى صورة شىء حسى : ازداد قربها منه وعمق أنسها به ، وقويت صحبتها له !! !

وإليك أمثلة تطبيقية ، توضح هذا السبب وتجليه :

قال مجنون ليلى :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على المـاء خانته فـروج الأصابع

يقول : إنه قد خاب فى ظنه أنه يتمتع بها ، ويسعد بوصلها ، وأن حالته هذه شبيهة بحال القابض على الماء ، وقد خانته فروج الأصابع .. ولا شك أن الأسلوب هنا : قد تحول فيه المعنوى إلى حسى ، وأن الشاعر ببراعته وحذاقته : قد صوّر لنا تصويرا رائعا : المعقول بالمحسوس ، وذلك يقوى المعنى ، ويؤكده فى النفس .. ومعلوم — بداهة — أن معاينة الشىء : تزيد من التصديق به ، والإذعان له ، ولذلك قال الله يحكى عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم :

﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ..﴾ .. (البقرة : ٢٦٠) ..

ويقول المتنبى ما دحا سيف الدولة :

فإن تفق الأنـام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

والمعنى كما يتراءى لك : إن تفوقت على الناس وأنت من جملتهم ، فليس هذا بالأمر الغريب ، لأن بعض الشىء قد يفضل الكل ، مثلُ المسك الذى هو بعض دم الغزال ، لكنه يفضله فضلا كثيرا ..

فقد شبه حال الممدوح فى امتيازه على كل الناس المعاصرين له ، حتى صار كأنه أصل برأسه : بحال المسك فى امتيازه على جميع الدماء التى تجرى فى الغزال ، حتى صار كأنه جنس مستقل بنفسه .. ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من تفوق الفرع على أصله .. ولا يخفى على الحاذق اللبيب : أن التشبيه هنا : من قبيل التشبيه الضمنى !!

ومن البراعة فى بيت المتنبى : أن ما يتضمنه من تشبيه : يحتوى دليلا على صدق الدعوى ، وأن لها نظيرا فى الوجود ، فإذا فضل المتنبى الناس قاطبة ، فنظيره فى هذا : المسك ، حيث يتفوق على دم الغزال جملة وتفصيلا ..

ومن روائع الأساليب فى هذا المقام ، قول أبى تمام :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

إن أبا تمام – وهو الشاعر الغواص على دقائق المعانى – يشير فى بيتيه : إلى أن الرجل الموهوب المتميز : لا ينبغى أن يلزم مكانا واحدا يقبع فيه ، حتى لا يسأم منه الناس ، ويملوا معاشرته ، لأنه أصبح مألوفا لديهم ، رتيبا عندهم ، ولكن يجب أن ينتقل هنا وهناك ، ليرسل أشعة علمه ، ويستزيد الناس من فضله .. ثم يبلغ أبو تمام – بحذقه ومهارته – غاية التمام ، فينقل المعنى من طور الغموض والخفاء ، إلى مرحلة الوضوح والجلاء ، ويبرز المعقول فى صورة المحسوس ، فهناك الشمس المتوهجة التى تمد الكون بالحرارة والنور ، والدفء والحياة : إن هذه الشمس لو طلعت على الناس دوما ، لسئموها وضجروا منها ، لكنها تطلع فترة ، وتغيب فترة ، ولذا أحبها الناس ، وتعلقوا بها ..

فقد شبه أبو تمام حاله فى إيثاره الإقامة حينا ، والاغتراب حينا : بحال س تظهر نهارا ، وتغيب ليلا ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من عرفان فضل الشىء ومكانته ، لظهوره حينا واختفائه حينا ..

٢ – السبب الثانى : « أن التمثيل يجمع بين أمرين متنافرين مختلفين » .

بيان ذلك : أن كثيرا من التشبيهات يُجمع فيها بين أمرين متنافرين مختلفين ، وبذلك ينيل المعنى ويفخم ، ويشرف ويعظم ، ويلقى محله من القبول ، لأن التباعد بين الأمرين كلما كان أشد : كانت النفوس لذلك أطرب ، وله أعجب ، فإن تطلب الشبه للشيء من غير جنسه وشكله ، والتقاط ذلك له من غير محلته ، حتى يصيرا به مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، حتى إنك لترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقة الإنسان وخلال الروض : بابٌ آخر من الظروف واللطف ، ومذهب من مذاهب الإحسان والإتقان ..

يقول الشاعر الجاهلى قيس بن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى كنعقود ملاحـــية حين نـــورا

(الثريا : مجموعة من النجوم ، المُلاّحى : بضم الميم وتشديد اللام : عنب طويل أبيض : نوّر الزرع : نضج) ..

فقد شبه الشاعر الثريا فى الصبح : بعنقود العنب حال نضجه ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من اجتماع صور بيض مستديرة صغار الأحجام فى مرأى العين ..

فانظر – هداك الله – إلى براعة هذا التشبيه ، وكيف جمع بين هاتين الصورتين الطريفتين المتباعدتين ؟

ويقول ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنا مداهـــنُ در حشوهـــن عقيق

(مداهن : جمع مُدهن ، وهى قارورة الدهن ، عقيق : خرز أحمر) .

فقد شبه الشاعر زهر النرجس الغض : بمداهن الدر يتوسطها العقيق ، وهى صورة طريفة لا توجد إلا فى الخيال .. ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من اجتماع

أجرام صغار بيض مستديرة متلاصقة ، على شكل دائرة بيضاء ، تحيط بدائرة أخرى حمراء ..

ومن إبداع الأساليب فى هذا : قول الله جل ذكره :

﴿والقمر قدرناه منازلَ حتى عاد كالعرجون القديم﴾ .. (يس : ٣٩) .. فصورة « العرجون القديم » غير نادرة الحضور فى الذهن ، بل هو شائع ومطروق ، ولكنها تندر عند استحضار صورة القمر ، فإن البون شاسع بين الصورتين ، فإن القمر مسكنه فى السماء ، والعرجون مقره الأرض ، والقمر مثال العلو والهداية ، والعرجون شيء تافه ، وشتان ما بين الصورتين ..

ويقول الشاعر أبو الحسن بن مقلة :

لست ذا ذلة إذا عضنى الدهـ ـر ولا شامخا إذا واتانى
أنا نار فى مرتقى نظر الحا سد ماء جار مع الإخوان

والتشبيه هنا : جمع بين صفتين متباعدتين متنافرتين ، لأنهما متضادتان ، لا يلتقيان ، ولا يجتمعان ..

فقد شبه الشاعر نفسه فى نظر أعدائه : بالنار ووجه الشبه : هو الإيلام ، وشبه نفسه مع أصدقائه : بالماء ، ووجه الشبه هو اللطف والصفاء ، واجتماع الماء والنار فى شيء واحد ، مما يحرك فى النفوس قوى الاستحسان ، ويثير منها كوامن الاستطراف .

ومن عجيب أمر التشبيه : أنه يسحرك ويسبيك ، ويأسرك ويستهويك ، فتراه يعطيك من الشيء الواحد أشياء متعددة ، ويشتق من الأصل الواحد أغصانا فى كل غصن ثمر على حدة !! فانظر -- مثلا — إلى القمر : تجد التشبيه يمنحك منه : الشهرة ، والشاهة ، والعزة والرفعة ، فتقول : كيف تجهل فلانا وهو القمر لا يخفى على إنسان ؟ ؟ كما يعطيك التشبيه من القمر : الكمال بعد

النقصان ، كما نقول فى الولد ، يتدرج فى مدارج الكمال ، حتى يبلغ المستوى الذى يليق به ، من الفضل والعقل والشرف : (هلال نما فعاد بدرا) ..

وكذلك يعطيك التشبيه من القمر : النقصان بعد الكمال ، كقول المعرى :

وإن، كنت تبغى العيش فابغ توسطا فعند التناهـــى يقصر المتطـــاول
توقى البدورُ النقــص وهى أهلـــة ويدركها النقصـــان وهى كوامــل

فقد شبه حال الشخص فى أمنه من النقص عند التوسط فى العيش ، وعدم أمنه منه إذا بلغ نهايته : بحال البدور فى أمنها من النقص وهى أهلة ، وإدراكه لها بعد كمالها . ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من بدو الشىء على حال الكمال فى التوسط ، فإذا اكتمل مال إلى النقصان .

والأمثلة فى هذا الباب كثيرة ، لو أرخينا للقلم العنان ، ولكن حسبنا ما قدمناه ، ففيه ما ينقع الغلة ، ويبرد الظمأة ، إن شاء الله ..

٣ – السبب الثالث : « أنه قد يحتاج إلى الفكر والروية » ..

بيان ذلك : أن كثيرا من التشبيهات ، لا يدرك مغزاه ، ولا يتجلى مرماه ، ولا تتكشف معالمه ، إلا بعد بذل مجهود فى سبيله أى مجهود ، واقتحام الذهن فى تحصيله السدود تلو السدود ، حينذاك يسفر التشبيه عن وجهه ، ويعلن عن ذاته ، وقد كان من قبل أبيا ، وعلى الفكر عصيا .. ومما هو معلوم فى الطبع ، ومركوز فى الجبلة : أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له ، والاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه : كان نيله أحلى ، وبالميزة أولى ، وكان موقعه من النفس ألطف ، وكانت به أضن ، وعليه أحرص ، ومن ثم ، كان التشبه الذى يُعوز إلى مزيد من الفكر والروية : حلبة واسعة ، يتسابق فيها المجيدون ، ويتبارى المبدعون ، ويتنافس فوق ساحتها الأدباء والبيانيون ، وهم فى هذا الميدان الزاخر يتفاوتون ، ومن هنا ، كان لابدّ أن يفوق بعضهم بعضا . ولننظر إلى المتنبى وهو يرثى والدة سيف الدولة : إنه يقول :

ولـو كان النســاء كمن فقدنا　　　لفضّلت النســاء على الرجــال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب　　　ولا التذكــير فخــر للهــلال

والمعنى : لو أن نساء العالم كهذه المفقودة ، فى الكمال ، والعفاف ، والأدب : لأصبحت النساء أفضل من الرجال ، لأن الشىء لم يكن شريفا أو غير شريف : لتأنيث اسمه أو تذكيره ، بل يثبت الشرف وغير الشرف للمسميات من حيث أنفُسها ، وأوصافُها ، لا من حيث أسماؤها ، فرب تأنيث يقصر التذكير عنه ، ولا يبلغ مبلغه ، والشاهد على ذلك : الشمس والقمر ، فالشمس مؤنثة ، والفضل لها ، والقمر مذكر ، وهو لا يعادَل بها ، فالشمس أعم نورا ، وأكثر ظهورا ، وهى مؤنثة ، والقمر أقل نورا ، وهو كثير التنقل ، ويصيبه المحاق ، وهو مذكر ..

وقد ذهب النقاد إلى أن بيتى المتنبى السابقين : تضمنا احتجاجا لتفضيل المرأة على الرجل ، بحجة لم يسبق إليها .. يقول ابن الأثير : « فلو عاش امرؤ القيس ، ثم مات ، ثم عاش ، لما أداه فكره إلى تدقيق النظر فى هذا المعنى الذى أورده المتنبى فى قوله السابق .. »[1] ..

وقد امتدح المتنبى سيف الدولة فى بيت جاء بعد البيتين الماضيين ، فقال يخاطبه :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا　　　كأنك مستقيم فى محــال

والمعنى : أنت تفضل الملوك كما يفضل المستقيم المعوج ..

وقد حكى الرواة : أن أبا الحسن محمد بن أحمد الشاعر : انتقد هذا البيت أمام سيف الدولة ، وكان المتنبى حاضرا ، وكان نقده موجها إلى أن كلمة المحال ليست ضد كلمة المستقيم ، وإنما ضد المستقيم المعوج .. فقال سيف الدولة :

---

(١) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ص ٤١٠ .

فما كنت تقول ؟ قال : كنت أقول : كأنك مستقيم فى اعوجاج ، قال : فما تفعل فى البيت الذى يليه ، وهو :

فإن تفق الأنـــام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال ؟

قال : كنت أقول : فإن البيض بعض دم الدجاج .

فضحك سيف الدولة ، ثم ضرب بيده على الأرض ، وقال : حسن ، مع هذه السرعة ، إلا أنه يصلح أن يباع فى سوق الطير ، لا مما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن ..

وقال النابغة يمدح النعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذى هو مدركـى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

يصور النابغة سلطان النعمان ونفوذه ، وأنه لا يفلت من قبضته هارب ، فيمثله بالليل فى وصوله إلى كل مكان .. وموطن الدقة والبراعة فى هذا التمثيل : أن الشاعر : آثر الليل على النهار ، مع أنهما يستويان ، فى أن كلا منهما ، يصل إلى كل مكان ، وهذا دليل وحجة ، على أن النابغة قد روّى وفكر ، فاهتدى إلى أن حالة إدراكه — وقد هرب منه — حالة سخط وغضب ، والليل لما فيه من رهبة وخوف ، أنسبُ بمقام الرهبة والخوف من النهار ، حيث فيه ما يُذهب الوحشة ، ويجلب المؤانسة ..

وقد نسج على منوال النابغة : الشاعر « العباس بن الأحنف » ، حيث قال :

نعمة كالشمس لما طلعت بشت الإشراق فى كل بلد

وذلك لأنه قصد من تشبيه النعمة بالشمس : أنها تعم الأقطار ، وتصل إلى كل الديار ، وهو نفس ما توخاه النابغة من تشبيه النعمان بالليل ، إلا أن النعمة لما كانت تبهج وتسر ، انتزع لها الشبه من الشمس ، لدلالتها على ذلك ، ولو أن الشاعر انتزعها من الليل ، مراعيا وصوله إلى كل مكان : لأخطأ خطأ فاحشا ،

لأن الليل يرهب ويخيف ، أما الشمس فهى مصدر الحياة والدفء ، والسرور والعافية ، فينبغى أن يكون لكل مقام مقال ..

ويقول ابن الرومى مصورا حاله – وقد رام العدو تصغيره ، والازدراء به ، فيأبى فضله إلا ظهورا – بحال الشهاب من النار ، حيث ينخفض وهى ترتفع ، وينزل وهى تعلو ، يقول فى ذلك :

ثم حـــاولت بالمثيقيل تصغيـ ـرى فما زدتنى سوى التعظيم
كالذى طأطأ الشهاب ليخفى وهو أدنى لـــــه إلى التضريم

فالذى يخاطبه ابن الرومى : كان قد أغرى به شاعرا هجاء ، يسمى : محمد بن يعقوب المعروف بمثقال ، ليهجوه بأقذع الهجاء ، فلم يحط ذلك من مكانة ابن الرومى ، بل كان معوانا على إظهار فضله ومزاياه ..

ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من محاولة إخفاء الشىء الظاهر بطريقة تؤدى إلى عكس المراد ..

ومن جملة ما تقدم من أمثلة تشبيهية ندرك : أن موطن الروعة والجمال فى هذه التشبيهات : هو ما تتطلبه وتقتضيه ، من بذل مجهود فكرى ، لأن وجه الشبه من اللطف والدقة والخفاء ، بحيث لا يتأتى ولا ينقاد ، إلا للغواصين فى أعماق المعانى ، ليستخرجوا كنوزها ونفائسها ، وهو مطلب لابد له من معاناة وروية ، وقدح لزناد العقل ، وإثارة لطاقات الخيال .. وعلى كل ، فالثلاثة أسباب المذكورة ، تتعاون جميعها وتتآزر ، لرسم صورة تشبيهية وتمثيلية بارعة ، تؤثر فى الخاطر ، وتحرك النفس ، وترقى بالحس . وتراثنا الأدبى زاخرا بالأمثلة ، فياض بالأساليب فى هذا المجال الممرع الخصيب .

أغراض التشبيه

أسلوب التشبيه من أرفع الأساليب قدرًا ، وأشدها تأثيرًا ، وأكثرها تحريكا للعاطفة والوجدان ، فهو يجعل الخيال يتوهج ، والفكر يشرق ويتألق ، والذهن يصفو ويتوثب ، ومن ثم فمكانته من الكلام ، تستوجب أن يناط به غرض ، وترتبط به نكتة بلاغية ، ولطيفة بيانية ، ومن ثم تنوعت أسرار التشبيه ، وتعددت أغراضه ومراميه ، ولو تتبعنا نكات التشبيه وأهدافه : لوجدنا بعضها يتعلق بالمشبه ، والآخر يعود إلى المشبه به .. وفى شيء من الإيجاز ، نعرض لهذه الأغراض .. فما يعود على المشبه منها هو :

١ - بيان صفة المشبه :

وذلك إذا كان المشبه مجهولا غير معروف ، فنمثله بما هو معروف وغير مجهول ، حينئذ يتضح المشبه ، وتكشف الأستار عن المجهول ، كقول الله جلت قدرته ، يتحدث عن إهلاكه لثمود : ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ...﴾ .. (القمر : ٣١)

والآية توضح كيف أباد الله ثمودا - وهم قوم نبى الله صالح عليه السلام - حيث غشيتهم الصيحة ، فاستحالوا - من شدتها وتأثيرها - إلى ما يشبه الشجر المتكسر اليابس ، الذى قد تصنع منه الحظائر ، وهو شيء مألوف لدى القوم .

٢ - تقرير صفة المشبه فى ذهن السامع :

وهذا الغرض يرد عندما يقصد نقل الأمور المعنوية والذهنية ، إلى صور حسيّة تشاهد وتلمس ، وبذلك تستقر الصورة فى نفس السامع ، وتتمكن فى ذهن المخاطب ، لأن النفس أكثر تعلقا بالمحسوس ..

وذلك كقول الله جل ثناؤه : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه

الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ...﴾ (النور : ٣٩)

والآية تصور أعمال الكافرين – وهى من الأمور المعنوية – بالسراب الخادع ، الذى يتراءى للناس عادة فى الصحراء ، وهذا التصوير يشير إلى صفة هامة ، وهى ضياع أعمال الكافرين ، وذهابها سدى ، وهو معنى فى المشبه ، يحرص السياق على تقريره ، ليحذر من التردى إليه .. ومن ذلك قول الشاعر :

إن القلـوب إذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

فإذا كان الزجاج المكسور لا يعود إلى الالتئام مرة ثانية ، وكان هذا أمرا مستحيلا أو متعذرا : فإن القلوب المتنافرة المتشاكسة لا يرجع لها الصفاء والود – كذلك – بحال .. وهذا ما يريد الشاعر تقريره .

٣ – بيان إمكان وجود المشبه :

وذلك إذا كان المشبه أمرا غريبا ، يمكن أن يُدعى امتناعه ، وحينئذ يُشبه بشىء مسلم الوقوع والثبوت ، ليكون بمثابة الدليل على إمكانه .. وذلك كقول الشاعر :

فإن تكـن تغلب « الغلباء » عنصرها   فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب

والمعنى المراد من البيت : أن هذه المرأة « الغلباء » ، التى هى من قبيلة تغلب ذات العز والشرف ، والمجد والسيادة : فيها من صفات الكمال ورجحان العقل ، ما جعلها تفضل قومها ، وتبذّ بنى جلدتها .. ثم أقام الشاعر دليلا على دعواه ، فها هو العنب أصل للخمر ، بيد أنها – أى الخمر – تفضله وتتفوق عليه ، لخصيصة اختصت بها دونه ..

فغرابة المشبه هنا بادية فى سبق هذه المرأة قومها فى مجالات الشرف والمكارم ، ومعاقد النبل والمحامد ، وهذا – فى حد ذاته – قد يوحى بعدم إمكان وجود المشبه ، لكن الشاعر أقام برهانا دقيقا ، على إمكانية وجوده

وتحققه ، بأن الخمر مأخوذة من العنب ، وعلى الرغم من ذلك ، فهى تفضله ، وتتقدم عليه ، فياله من تنظير بارع !!

وعلى هذا النهج جاء قول الشاعر مادحا :

من الورى هو لكن فاقهم كرما كذلك الدر والحصبـــاء أحجار

والتنظير فى هذا البيت لا يغمض على ذى فطنة وذكاء ..

٤ – تزيين المشبه :

وذلك بتحسينه وتجميله ، وإظهاره فى صورة محببة ، ترغبها النفس ويبتهج لها الحس ، وهذا يؤنس المخاطب ، ويمتع خياله ، ويريح وجدانه .. ولقد كان للقرآن فى هذا المجال : القدح المعلى ، حيث فاض بتشبيهات ، هى قمة البلاغة ، وذروة سنامها ، خصصها للحديث عن الجنان ، وما فيها من الحور والولدان ، وساقها فى تراكيب تأخذ بمجامع القلوب !!

فقد قال الله تعالى : ﴿يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ...﴾ (الطور : ٢٣ – ٢٤) .

وقال تعالى : ﴿ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا...﴾ (الإنسان : ١٧ – ١٩) ..

وقال تعالى : ﴿وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ (الواقعة : ٢٢–٢٣) .

٥ – تقبيح المشبه :

قد يكون الغرض من التشبيه : تقبيح المشبه ، وذلك بتهجينه وإبرازه فى صورة منفرة ، وفى معرض قابض كريه ، يخيف النفس ويزعجها ، فتعمل جاهدة على تفاديه ، وتحرص على عدم الولوج فيه ..

والذكر الحكيم – أيضا – ثرى بألوان من الأساليب ، التى تخدم هذا

المعنى ، وتؤكد هذه الفكرة ، وذلك حين تراه يزيف الاعتقادات الباطلة ، ويحارب السلوكيات الفاسدة .

يقول مثلا فى آكلى الربا : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ...﴾ (البقرة : ٢٧٥) .

وهى صورة كئيبة ثقيلة الظلال ، يبرز من خلالها المتعاطون للربا : كالمصروعين الذى أصابهم مس من الشيطان ، جعلهم لا ينهضون حتى يتعثروا ، ولا يقومون حتى يسقطوا ..

ويقول متحدثا عن المنافقين : ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ...﴾ (المنافقون : ٤) ..

والتعبير الكريم : يفيض تندرا بالمنافقين – وهم المشبه – ويجعلهم مثلا للسخرية وهوان الشأن ، وما بالك بقوم يبدون وكأنهم ألواح من الخشب جامدة ساكنة ؟

ويقول عز من قائل : ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بمالا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾ (البقرة : ١٧١) ..

والمتحدث عنهم هنا : يشبهون – لعدم استجابتهم لنداء الله – الأصم الأبكم الأعمى ، فلقد ألغوا حواسهم وعطلوها ، ولم يتجهوا بها ، كما أمرهم خالقهم ، فأصبحوا – بذلك – مساوين لمن فقدوا هذه الحواس (صم ، بكم ، عمى) ..

ويقول الله تعالى : ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ...﴾ (محمد : ١٢) ..

ومن تقبيح المشبه : قول الشاعر :

وإذا أشـــار محدثًا فكأنـه قرد يقهقه أو عجوزُ تلطم

أما الأغراض التى تعود إلى المشبه به ، فهى تتحقق فى صورتين :

١ – التشبيه المقلوب :

وذلك حين يريد المتكلم إيهام أن المشبه به أتم وأقوى فى وجه الشبه ، من المشبه ، كقول الشاعر :

وبدا الصبـــاح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

وتشبيه الصبح بوجه الخليفة : أبلغ وأعجب من تشبيه الوجه بالصباح ، لأن الأول أمر مستنكر ، وغير متفق عليه من العقلاء ، بينما التشبيه الثانى مما جرت به العادة ..

٢ – بيان الاهتمام بالمشبه به ، كأن يشبه الجائع وجها حسنا بالرغيف ، فى البياض والاستدارة ، وهو يدل بهذا على اهتمامه بالرغيف ، لأنه جائع ، ولولا ذلك ، لشبه الوجه الجميل بالبدر مثلا ، إذ هو المتبادر إلى الذهن ..

التشبيه المبتذل القريب والتشبيه البعيد الغريب .

التشبيه فن عال من فنون البلاغة ، له تأثيره ومنزلته ، وله قدره ومكانته ، وهذا مما يقربه كل العقلاء ، وكل المهرة من صناع الكلام .

.. بيد أن التفاوت يعترى هذا الفن الجميل ويغشاه ، فبعضه يكون أدق من البعض ، وبعض صوره تكون أدخل فى البلاغة وأكثر تألقا من بعضها الآخر ..

لذا فقد قسم علماء البلاغة التشبيه ، من حيث وجه الشبه إلى قسمين : قريب مبتذل وبعيد غريب :

وإليك البيان فى شىء من الإيجاز :

أولا : التشبيه القريب المبتذل :

وهو كل تشبيه ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى تأمل وتفكير ، لأن وجه الشبه فى المشبه به ، مما يسرع حضوره إلى الذهن عند حضور المشبه إليه ، وذلك لظهور وجه الشبه ، بأن يكون أمرا لا تفصيل فيه ، أو أن يكون متضمنا وصفا ، أو صورة ، أو هيئة من شأنها أن يكثر مرورها على الحواس ..

وهناك أمثلة توضح كل ذلك وتجليه :

يقول الشاعر واصفا عينا رمداء :

غدت عينه كالجمر حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخدُّ

نرى الشاعر هنا : يشبه العين الرمداء بالجمر فى الحمرة ، من حيث هى حمرة مجملة ، دون أن ينظر إلى أى نوع من التفصيل فيها ..

وقال المتنبى يصف أسدا :

مـا قوبلت عينـــاه إلا ظـنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا

فقد شبه عين الأسد بالنار فى الحمرة ، من حيث كونها حمرة مجملة ، لا خصوصية فيها ولا تفصيل ...

وقال آخر :

والوجـــه مثـل الصبح مبيض والفـــرع مثل الليـــل مسود
ضـــدان لمـــا استجمعا حسنا والضد يظهـــر حسنه الضـد

فتراه يشبه الوجه بالصبح فى البياض ، ويشبه الشَّعر بالليل فى السواد ، ولم ينظر إلى أكثر من جنس البياض ، وجنس السواد ..

فالوجه فى كل ما سبق من أمثلة : أمر جملى ، لا تفصيل فيه ، ولا تخصيص ، ومن ثم فالتشبيهات فيها قريبة مبتذلة ..

ثم إليك طائفة من هذه الأمثلة :

قال ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسن وفى بعد المنال
جد فقد تنفجر الصخرة بالمـــاء الزلال

وقال البحترى :

ذات حُسن لو استزادت من الحسن إليـــه لمـا أصابت مزيدا
فهى كالشمس بهجة والقضيب اللدن قدا والرئم طرفا وجيدا

(القضيب : الغصن ، اللدن : اللين ، الرئم : الظبى ، الجيد : العنق)

وقال آخر :

فجرى النهر وهو يشبه سيفا فى ريـــاض كأنهـــا أجفـان

وقال آخر :

ويخططن بالعيدان فى كل مقعد ويخبأن رمـــان الثـدى النواهد

وبالنظر إلى الأمثلة السابقة: ندرك أن وجه الشبه فى كل منها، مما يدرك بالحواس ، فهو لا يخرج عن كونه وصفا، أو صورة، أو هيئة، اشترك فيها الطرفان ، ومن ثم فإن المشبه به مما يسرع حضوره إلى الذهن عند حضور المشبه ، من غير تراخ أو إبطاء ، فإذا بهرك الوجه الجميل، وثب إلى ذهنك البدر المنير ، وقفزت إلى خاطرك الشمس الساطعة، وإذا أسرك القد الممشوق، بادر إلى مخيلتك الغصن المياد، وإذا سحرتك لواحظ العيون، وفتنتك الأعناق، مثّل فى ذهنك الظبى فى ملاحة عينه، وجمال جيده، وإذا نظرت إلى النهر فى بياضه واستطالته، تراءى لك السيف على مثل هذه الحال.. وهكذا الرمان والثدى النواهد..

ولا يخفى أن التشبيه فى الأمثلة السابقة : هو – أيضا – من النوع القريب المبتذل ، حيث إن الانتقال فيه من المشبه إلى المشبه به ، لا يحوج إلى تأمل ومزيد تفكر ، لأن وجه الشبه يصافح الأذهان ، ويتملى أمام العيون والأبصار .

ثانيا : التشبيه البعيد الغريب :

وهو كل تشبيه لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به ، إلا بعد تثبت وتذكر ، وفكر للنفس فى الصور التى تعرفها ، وتحريك للوهم فى استعراض ذلك ، لأن وجه الشبه فى المشبه به خفىّ لا ينزع إليه الخاطر ، ولا يقع فى الوهم ، إلا بعد تثبت وتذكر .. وأسباب خفاء وجه الشبه هى :

١ – أن يكون فى وجه الشبه تفصيل يحتاج إلى دقة الملاحظة والتأمل .. والتفصيل يأتى على وجوه : **الأول** : أن يكون لوجه الشبه أوصاف ، فيؤخذ بعضها ، وهو ماله دخل فى تحقيق التشبيه ، ويترك الباقى ، وهو ما ليس له دخل فى تحقيق ذلك ، كقول امرىء القيس ، يصف سيفا :

حملت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

(الردينى : الرمح المنسوب إلى ردينة وهى امرأة سمهر وكانا يصنعان السيوف) والشاعر هنا : قد شبه سنان الرمح باللهب ، فى الشكل واللمعان واللون والاضطراب ، وهى فى الظاهر أوصاف كفيلة بتحقيق التشابه بين الطرفين ، لكن امرأ القيس : روّى ونظر ، فوجد أن فى المشبه به شيئا يقدح فى تمام المشابهة ، ألا وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة (اللهب) ، إذ ليس فى رأس السنان ما يماثل ذلك ، ومن ثم نفاه من المشبه به ، واستثناه منه ، فقال : « لم يتصل بدخان » ، وبذلك صح التشبيه واستقام ، لأن الشاعر طرح من الأوصاف ، ما يخل بتحقيق التشابه بين الطرفين ، وليس من ريب فى أن التشبيه لا يأتى على هذه الطريقة البارعة جزافا ، بل لابد من بذل مجهود فكرى ، وقدح لزناد العقل ، ومداومة للنظر ، ومعايشة للنص ومكابدة ...

وقد كان لامرىء القيس – بهذا التفصيل – فضل السبق ، فى هذا المجال ، حيث امتاز على « عنترة العبسى » ، فى قوله فى ورد بن حابس ، وقد قتل نضله الأسدى :

يتابع لا يبتغـــى غيره يأبيض كالقبس الملتهب

فالمشبه به واحد فيهما ، ولكن شتان ما بينهما ، لخلوّ بيت عنترة من التفصيل الدقيق !!

ومن ذلك قول الشاعر :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحُلِنا الجزعُ الذى لم يثقّب

فقد شُبّهت عيون الوحوش التى كانوا يلقونها حول أخبيتهم ، بعد أن كانوا يتناولون لحمها ، بالجَزْع (بفتح الجيم وسكون الزاى ، نوع من العقيق فيه دوائر بيض وسود) الذى لم يثقب ، وقد أملت على الشاعر دقته وحصافته : أن ينفى التثقيب عن الجزع ، تحقيقا للتشابه بين الطرفين ، لأن الجزع إذا ثُقب : خالف عيون الوحش وباينها ...

الوجه الثانى من أوجه التفصيل : أن يستعرض أوصاف المشبه كلها ، ثم يطلبها فى المشبه به كذلك ، ومن ثم يبرز المتكلم للمخاطبين ، صورة رائعة ، يبدو فيها طرفا التشبيه ، وكأنهما شىء واحد ..

ومن ذلك قول « قيس بن الأسلت » :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى كنعقـــود وملاّحيـة حـين نورا

(الملاّحيَّة : بضم الميم وتشديد اللام وكسر الحاء : عنب أبيض طويل ، نورا : أخرج نَورْه والمراد : نضج ..) ..

فقد شبه الشاعر الثريا فى الصبح فى مرأى العين : بعنقود الملاّحية حين يخرج نوره ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من اجتماع الصور البيض المستديرة ، الصغار المقادير ، فى حالة ليست متلاصقة ولا متباعدة على شكل مثلث .. وقد استعرض الشاعر هذه الصفات فى المشبه ، ثم طلبها فى صورة أخرى شبيهة بها ، فألفاها فى العنقود المنور من الملاحية ، وبذلك تطابقت الصورتان فى مرأى العين ..

وقال شاعر يصف شمسا وقت طلوعها :

ولاحت الشمس تحكى عند مطلعها مرآة تبر بدت فى كف مرتعش

فقد شبه الشمس حين تطلع حمراء لامعة مضطربة : بمرآة من ذهب تضطرب فى كف ترتعش ، فإذا بحثت عن وجه الشبه وجدته : الهيئة الحاصلة من الاستدارة ، مع الإشراق ، والحركة السريعة المتصلة ، وما ينجم عنها من التموج والاضطراب ، حتى يرى الشعاع كأنه يهم بالانبساط حتى يفيض على جوانب الدائرة ، ثم يبدو له فيعود من الانبساط الذى بدأه إلى الانقباض ، والشمس إذا رمقها الإنسان ، ألفاها مؤدية لهذه الصورة الخالبة وكذلك المرآة فى الكف الرعشاء إذا كانت من تبر (ذهب) : فإنها تنقل لنا الصورة ذاتها ، ومن ثم فالصفات المعتبرة فى المشبه : اعتبرت كذلك فى المشبه به ..

ومن ذلك قول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فقد شبه الشاعر المفتن « بشار » : حال التراب المعقود فوق رءوس المحاربين فى المعركة ، والسيوف تبرق وتلمع ، وتنخفض فى حركات كثيرة إلى جهات مختلفة : شبّه هذه الصورة : بصورة الليل المظلم ، تتهاوى فيه الكواكب .. ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام مشرقة مستطيلة ، متناسبة المقدار ، فى جوانب شىء مظلم .. وقد راعى الشاعر التفصيل فى التشبيه ، حيث نظر إلى ما تضمنه المشبه من أوصاف : غبار منعقد فوق رءوس المحاربين فى ميدان القتال ، وسيوف تلمع وتبرق ، وتعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ثم لما أراد أن يعثر على ما يماثل هذه الأوصاف فى المشبه به : وجدها متكاملة فى الليل المظلم تلمع فيه الكواكب .. وقد أبدع بشار فى نقل تلك الصورة المحسوسة الرائعة ، وإحضار ذلك المشهد المثير ، حتى لنخال أنفسنا أمام صورة تتحرك حقيقة ، بكل ما يداخلها من تفصيلات دقيقة ، استوعبها ذهن الشاعر اللماح .. وتلك حسنة من حسنات البيان القادر ، وومضة متوهجة من ومضات الخيال ..

الوجه الثالث من أوجه التفصيل :

هو : أن تفصل بأن تلاحظ خاصية فى الوصف الذى يراد إشراك الطرفين فيه ..

وهذا الوجه هو المنزلة الدنيا من التفصيل ، لأن الذى معنا فى السياق : وصف واحد ، لكننا لا نقنع بالنظر إليه مجملا ، بل نفصل ، والمراد بالتفصيل هنا : أن تتوجه الأنظار إلى خاصية فى الوصف ، وتعتبرها زائدة فيه ، لأنها موجودة فى بعض أفراده دون بعض .. حينذاك تصبح هذه الخاصية هى نكتة التشبيه ، وسر البلاغة فيه .

يقول ذو الرمة :

وسقطٍ كعين الديك عاورت صحبتى أياها وهيأنا لموقعها وكرا

(السقط : هو ما سقط بين الزندين قبل خروج النار من العودين ، عاورت : تناوبت) لم يقصد الشاعر فى البيت : إلى جنس الحمرة مجملا ، بل قصد إلى ما فى عينه من تفصيل وخصوص ، يزيد على كون الحمرة رقيقة ناصعة ، والسواد صافيا براقا .. ولذا كان هذا التشبيه بعيدا غريبا مستطرفا ..

٢ – السبب الثانى فى خفاء وجه الشبه :

هو : ندرة تكرار المشبه به على الحواس وذلك يستدعى بطء حضور المشبه به إلى الذهن عند حضور المشبه ، وهذا إما بسبب بعد المناسبة بين الطرفين ، كقوله تعالى : ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ...﴾ (يس : ٣٩) فصورة « العرجون » : نادرا ما تتداعى إلى الذهن ، وتمثل فيه ، عند استحضار صورة القمر ، فإن بونا شاسعا بين الأمرين يباعد بينهما فى الحضور ، فالقمر فى السماء ، والعرجون فى الأرض ، والقمر مثال للهداية والرفعة ، والعرجون شىء ليس له فائدة .. ومن ذلك قول ابن المعتز ، يصف زهرة البنفسج :

ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

فصورة النار فى أطراف الكبريت من الذيوع والشهرة ، بحيث تتكرر على الحواس فى أوقات كثيرة ، ولكن يندر حضورها فى الذهن ، عند حضور زهرة البنفسج ، فشتان ما بين نار فى جسم يابس ملتهب ، ونبات غض يرف . فقد شبه الشاعر الحاذق : أزهار البنفسج الزرق على القامات الضعيفة :

بأوائل اشتعال النار فى أطراف الكبريت ، ووجه الشبه : هو : الهيئة الحاصلة من اللون الخاص ، متصلا بالساق الدقيقة المخالفة للونه ..

وقد احتاط « ابن المعتز » لتحقيق وجه الشبه بين الطرفين ، حيث جعل

التشبيه بأوائل النار فى أطراف الكبريت ، لأنها لو كانت على غير ذلك ، لكانت حمراء لازرقاء ، وهذا شىء يقدح فى تمام المشابهة !!

ومن الطريف المشهور فى هذا الباب : ما يحكى عن جرير فى قوله :

أنشدنى عدى بن الرقاع قوله من قصيدته التى مطلعها :

عرف الديـــار توهما فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها

فلما بلغ إلى قوله :

تزجى أغنّ كأن إبرة روقه :

(تزجى : تسوق أى الظبية ، أغن : فى صوته غنة والمراد ولد الظبية ، الروق : القرن) رحمته وقلت : قد وقع ، ما عساه يقول وهو أعرابى جلف جاف ؟ فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

امتحالت الرحمة حسدا ..

وما ذاك إلا لأن جريرا ، قد رأى الشاعر : ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وبذلك صار المشبه به المغاير للمشبه فى الجنس : متفقا معه فى الوصف المشترك بينهما ، أجمل اتفاق ، فكل من القلم وطرف القرن : أسود دقيق على شكل معين ، بينما الحقيقة وجود اختلاف كبير بينهما ..

وقد تكون ندرة تكرار المشبه به على الحواس : لأن المشبه به وهمى ، لاوجود له ، فهو ليس مدركا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، كقوله تعالى : ﴿طلعها كأنه رءوس الشياطين﴾ (الصافات : ٦٥) فالضمير فى « طلعها » لشجرة الزقوم ، والطلع للنخلة ، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من ثمارها ..

فقد شبه طلع شجرة الزقوم : برءوس الشياطين ، فى الكراهة وقبح المنظر ، إذ الشيطان مكروه ، مستقبح فى طباع الناس ، لأنه لا يأتى من طريقه خير ..

ولو نظرنا إلى التشبيه هنا : لوجدناه وهميا ، لأنه لا وجود لرأس الشيطان إلا فى الأوهام ، ومن هنا كان بعيدا غريبا ..

ومن ذلك قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشر فى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

شبه السهام أو الرماح المسنونة : بأنياب الأغوال ، فى الحدة ، ووجه البعد والغرابة هنا : أن المشبه به أمر يندر حضوره إلى الذهن مطلقا وعلى أى حال ، لأنه أمر وهمى ، لاوجود له ، فالغول حيوان توهم العرب وجوده ، وليس بموجود ..

وقد يكون المشبه خياليا ، (أى توجد أجزاؤه فى الخارج دون صورته المركبة) فيندر تكراره على الحواس ، ومن ثم يكون التشبيه بعيدا غريبا ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكأن محمـــر الشقيق إذا تصوّب أو تصعّد
أعـــلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

(الشقيق : نبات أحمر الزهر ومنه شقائق النعمان ، تصوب : اتجه إلى أدنى) فقد شبه الشقيق الأحمر ، على سوقه الخضر ، تصوبه الريح ، وتميله إلى أدنى تارة ، وتتجه به إلى أعلى تارة أخرى : بأعلام من الياقوت منشورة على رماح من الزبرجد الأخضر ، ووجه الشبه هو : الصورة الحاصلة من وجود شىء أحمر مبسوط على شىء أخضر .

فها أنت ذا ترى أن المشبه به خيالى ، لا يدرك موجودا إلا فى الخيال ، ولذا فقد أمعن فى البعد والغرابة ، ومن ثم كان سحره وبلاغته .. وقد يكون

السبب فى ندرة تكرار المشبه به على الحواس : أنه مركب عقلى ، وذلك كقول كثير عزة :

لقد أطمعتنى بالوصال تبسما وبعد رجائى أعرضت وتولت
كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رجوها أقشعت وتجلت

فقد شبه الشاعر حاله مع محبوبته ، وقد أطمعته بالوصال الذى هو فى أمسّ الحاجة إليه ، ثم أعرضت عنه فخاب أمله ، وانقطع رجاؤه ، فبقى فى حسرة وألم : بحال قوم عطاش يتلهفون إلى الماء ، وقد رأوا سحابة تبرق ، فأطمعتهم فى غيثها ، ثم أيأستهم بانقشاعها وذهابها ، فبقوا فى حسرة وترح .. ووجه الشبه هو : ظهور أمات الظفر بالمقصود للمحتاج إليه ، ثم غيابها واختفاؤها ، وإبقاؤه فى كمد وترح ، بعد السرور والفرح .

فالتشبيه – الذى معنا – مركب عقلى ، والشأن فى المركبات العقلية : أنها لا تواتى الذهن عفوا ، ولا تبرق للخاطر من أول وهلة ، بل لابد من طول الأناة ، وامتداد الروية ، لأنّ مَنْ غاب عن العين غاب عن القلب ، ولذا كان هذا النوع من التشبيه : دقيقا بعيدا ، غريبا مستطرفا ..

ويقول ابن المعتز :

وكأن البرق مصحف قارٍ فانطباقا مرة وانفتاحا

شبه البرق فى أنبساطه وانقباضه ، والتماعه واختلافه : بالمصحف فى يد قارئ ، يوالى فتحه وإطباقه ، ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من توالى انبساط يصحبه التماع وبياض ، ثم يعقبه إظلام وانقباض .

وهذا – كما لا يخفى – تشبيه بعيد غريب ، وسبب بعده وغرابته : أن هذه الهيئة لا توجد إلا فى النادر القليل ، وإذا وجدت فإنها لا توجد عفوا ، بل عن عمد مسبوق بإصرار ، أو نتيجة مرضى نفسى غير معتاد ، عند من يفعل بالمصحف الشريف ذلك ..

وهكذا يتبين من مجموع ما أوردناه من أمثله ، وما سقناه من شواهد : فى باب التشبيه البعيد الغريب : أن موطن الغرابة والاستطراف ، ومكمن البلاغة والاستظراف فى هذا الفن : هو ما يتضمنه من تفصيل دقيق ، يزيد الصورة تركيبا وتأثيرا ، وما يحكم المشبه به فيه : من ندرة تكرره على الحواس ، مما يجعل الصورة ذات أسر وإمتاع ، بما تتطلبه من روية ، وما تقتضيه من إمعان نظر !!

تحول التشبيه من القرب والابتذال إلى : البعد والغرابة

قرب التشبيه وابتذاله ، ودنوّه وعدم تأبيه : منوط – كما عرفت – بسرعة حضور المشبه به إلى الذهن عند حضور المشبه ، وهذا يعنى أن وجه الشبه أمر يشترك فيه الطرفان عادة ، فلا يثب أحدهما إلى البال : إلا ويثب الآخر بطريقة تلقائية ، وهذا معناه أن التشبيه – وشأنه ما ذكر – لا يحوج الناظر فيه ، أو المتدبّر لمراميه : أن يتقصى ويجتهد ، ويكدّ ذهنه ، ويشعل فكره ، ليضع يده على وجه الشبه ، أو يتلمس رابطة تشد المشبه إلى المشبه به ، وتجعلهما يلتقيان ، فكل واحد منهما يستدعى الآخر على عجل ، ويتشبث به دون مهل ، وكأنهما فى هذا المجال : أخوان ، أو صديقان حميمان ، فإذا حضر إلى الذهن الرجل الشجاع ، برز إليه الأسد الهصور ، وإذا تصورنا رجلا جوادا ، وثب إلى خيالنا بحرهدار ، وإذا لاح أمامنا رجل ذو طلعة مشرقة ، تمثلنا القمر فى هيئته ..

وكل هذا يتم دون حاجة إلى ترو أو تفكير ، لأنه فى حكم الفطر المركوزة فى الطباع ، والغرائز المستكنة فى النفوس ، بخلاف التشبيه البعيد فإنه لا ينال إلا التعب ، والاجتهاد فى الطلب ، وما إخاله إلا كعروق الذهب المخبوءة فى أديم الأرض ، لا يظفر الغواص بها إلا بالحفر عنها ، وبذل العرق لاصطيادها والتمكن منها ..

بيد أن هذا التشبيه القريب النازل : يمكن رفعه من وهدته وابتذاله ، ليلحق بالتشبيه البعيد الغريب فى صعوده وسموقه ، وهذا يتحقق بإدخال شيء من الصنعة عليه ، وإلحاق شيء من الإبداع والتجويد به ، ويتحقق هذا أيضا : بأن يُعمل فى التشبيه نقش ، أو تُوصل به لطيفة ، أو يُدخل إليه من باب الكناية والرمز ، حينئذ يتغير معدنه ، وتعظم قيمته ، وتبرق نفاسته .. وإليك أمثلة توضح ذلك :

قال المتنبى :

لم تحك نائلك السحاب وإنما حمّت به فصيبها الرحضاء
لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

فتشبيه الجواد بالسحاب تشبيه قريب مبتذل ، ولكن الشاعر خالف المألوف فى التشبيه ، فجعله تشبيها ضمنيا مضمرا فى النفس ، ثم أبعد فى الصنعة ، ولطف فى المسلك ، فأوهم أن السحاب من صنوف الأحياء ، فهو حسود ، يحسد الممدوح لكثرة عطاياه ، وهذا المطر النازل منه ليس تفضلا ولا جودا ، لأنه لا يقدر على محاكاة الممدوح فى كرمه وسخائه ، وإنما هذا المطر المصبوب : هو عرق الحمىّ التى دهمته لغيرته من الممدوح ، وقعوده عن محاكاته ..

أما البيت الثانى : فقد شبه الشاعر الوجه بالشمس فى البهجة ، وهو تشبيه قريب مبتذل – لكن صنعة المتنبى ومهارته : أكسبته البعد والغرابة ، حيث جعل التشبيه ضمنيا مضمرا فى النفس، ثم نفث من سحره ، وزاد من إبداعه : فأوهم أن الشمس كائن حى، يستحيى ويتوقح ، ولو أنها تجملت بالحياء لتوارث خجلا من الممدوح .. وبهذه الصنعة الدقيقة : اكتسب التشبيه الغرابة والإبداع ..

وعلى منوال ما سبق : جاء قول بديع الزمان الهمذانى :

يكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والبدر لو لم يغب والشمس لو نطقت والأسد لو لم تُصَد والبحر لو عذبا

فالشاعر شبه الممدوح بالغيث ، وبالبدر ، وبالشمس ، وبالأسد ، وكلها تشبيهات قريبة ، لكن الهمذانى بحذقه ومهارته ، أبدع فى إخراج هذه التشبيهات من وهدة الابتذال ، فعكس التشبيه ، بأن جعل المشبه به مشبها ، على سبيل المبالغة ، ثم زاد – فى النص – ما ضاعف من روعته ، وسما من منزلته ومكانته ، فقيد كل واحد من هذه التشبيهات بقيد ، وجعله شرطا يتوقف عليه جمال التشبيه ، لذا فقد ارتفع هذا النوع إلى مرتبة الغريب البديع ، وصار من البلاغة فى أكرم محل ، ويسمى هذا التشبيه « التشبيه المشروط » وقال رشيد الدين الوطواط :

عزماته مثل النجوم ثواقبا لو لم يكن للثاقبات أفول

والشاعر هنا : يضفى على التشبيه لونا من ألوان الصنعة ، ويسلك به مسالك الروية والتدبر ، فيرقى من السذاجة إلى الحصافة ..

ولقد تعلم أن تشبيه العزم بالنجم : قريب مبتذل ، ولكن دقة الشاعر ألبست التشبيه ثوبا غير ثوبه ، فهو وإن كان تشبيها ظاهرا صريحا ، لتحقق أركان التشبيه جميعا ، إلا أن الشاعر قد أوهمك أن عزمات ممدوحه أنفذ من الكواكب ، ولذا فإنه لا يكون شبيها بها إلا حينما تفترض عدم غروبها ، وهذا وصف للنجوم خيالى مفترض ، فإنها لا بقاء لها فى مرأى العين دوما ، ومن ثم زاد عليها الممدوح ، فعزماته ثواقب آناء النهار ، وآناء الليل ، وهذا يسمى أيضا : « التشبيه المشروط » ..

وقال البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضّد أو بَرَد أو أقاح[1]

فتشبيه الأسنان باللؤلؤ المنضد ، والبرد ، والأقحوان : تشبيه قريب مبتذل ،

(١) المنضد : المنظم ، البَرَد : حب الغمام ، أقاح : جمع أقحوانه وهو زهر ورقه أبيض يشبه الأسنان .

لكن الذى أخرج هذا التشبيه من الابتذال إلى البعد والغرابة هو تعدد التشبيه بتعدد المشبه به ، وبذلك ارتفع عن الامتهان ، إلى درجة لا تنكر من الطرافة ..

ومن طرائف الغزل للبحترى قوله :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها   وللقضيب نصيب من تثنيها

وأصل هذا التشبيه : أن الوجه الحسن يُشبه بالبدر ، وأن القوام الأهيف يشبه بالغصن .. وهذان التشبيهان من القرب والابتذال بمكان .. إلا أن البحترى بشاعريته الرقيقة ، وصناعته العذبة : قد أضفى على التشبيه ما أزال همود ، وأذهب خموله ، فعكس التشبيه ، بأن جعل المشبه به مشبها ، فأصبح البدر يشبه المحبوبة فى محاسنها .. أرأيت ؟ ؟ ثم رأيناه لا يكتفى بعكس التشبيه ، بل وجدناه يوهمنا أن البدر : وهو المثل فى تحسين كل حسن ، وتزيين كل مزين ، وهو الأساس فى الوصف بالجمال والبهاء : فيه شىء لا كل شىء من محاسنها ، وهذا من سحر البيان وخلابته .. وكذلك صنع فى الشطر الثانى من البيت ، فعكس التشبيه وقلبه ، وأوهم القارئ : أن الغصن الميّاد ، الذى يُشبه به كل قوام خلاب : فيه نصيب من تثنيها وتكسّرها .. ولا شك أن هذه الصنعة ، وتلكم التزاويق فى التشبيه : لا تتم إلا بعد تعمّل وتدبر ، وتأمل وتفكر ..

وبمثل هذه الإبداعات والإضافات : يتحول التشبيه من القرب والابتذال إلى البعد والغرابة ، فيبدو فى غير صورته ، ويظهر فى غير هيئته ، فيخلب ويعجب ، ويسعد ويطرب .. وهذا الباب ميدان فسيح لاحب ، يتبارى فيه المتنافسون ، ويتسابق المجيدون !!

التشبيه الضمنى

التشبيه الضمنى فن رفيع من فنون التشبيه ، لأن صياغته لا تتم بطريق صريح ، فيسهل إدراكه ، والتعرف عليه ، وإنما يوحى به الكلام إيحاء ، ويَدُلّ عليه السياق دلالة ، ويفهم من ثنايا التعبير فهما ، ومن ثم يحتاج فى استنباطه إلى نوع من الفطانة والزكانة ، وإلى قدر من التأمل والكياسة ، لأن سبيله التلميح لا التصريح ، والإشارة دون العبارة .. وصدق من قال : « وكل لبيب بالإشارة يفهم » ..

ولننظر إلى أبيات « أبى فراس الحمدانى » التى يقول فيها :

أسرت وماصحبى بعُزل لدى الوغى ولا فرس مهـــر ولا ربـــه غـمر
ولكن إذا حم القضـــاء على امرئ فليس لـــه برّ يقيـــه ولا بحـــر
وقال أصيحا بى الفـرار أو الـردى فقلت هـمـا أمـــران أحلاهمـا مر
ولكـننى أمضـــى لمـــا لا يعيبنى وحسبك من أمرين خيرهمـا الأسر

إلى أن يقول متحدثا عن مكانته :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم وفى الليلة الظلمـاء يفتقد البدر

إن « أبا فراس » هنا : يحكى قصة وقوعه فى أسر الروم ، ويبين أن أسره ما كان ناجما عن جهله بفنون القتال ، أو لأن فرسه بليد غير مدرب .. كيف وهو الفارس الشجاع المقدام ، الذى تشهد ساحات الوغى ببسالته ، ومضاء عزيمته ؟ إن أسره كان قدرا محتما لابد من نفاذه ، ومع القدر لا تجدى الحيل ، وصدق من قال : « إذا جاء القدر عمى البصر » .. فعلى الرغم من أنه وأصحابه كانوا مدججين بالسلاح ، لكنهم وقعوا فى الأسر ، لأنه قضاء لا يملك الإنسان له دفعا .. ثم يبين أبو فراس : أن أصحابه خيروه بين الفرار أو القتل ، ولكنه يرى

أن أحلى الأمرين منهما وهو الفرار ، يجلب له العار والشنار ، ولذا فهو مرّ وكريه ، يرفضه الإباء والشمم ، وكرامة العربى الفارس ، وخير له أن يواصل القتال ، ويتمادى فيه ، فلأن يصبح أسيرا ، خير له من أن يكون جبانا رعديدا :

ولكننـــى أمضى لمـــا لا يعيبنى وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

ويبدو أن أتباعه قد تقاعسوا عن استنقاذه من قبضة الأسر ، فظل فترة يعانى من مرارة الغربة والعزلة فى سجون الأعداء ، ومن ثم ، وجدناه يبين عن فضله ومكانته ، ويبرز صورته فى هذا الإطار التعبيرى الخلاب :

سيذكرنى قومى إذا جدّ جدهم وفى الليلة الظلمـــاء يفتقد البدر

إن قومه سيذكرونه أوقات المحنة والكرب .وعظائم الأمور ، لأنه فارس حلبتها ، وابن بجدتها ، وهو رب السيف الذى تتجلى أمامه الكربات ، وتنقشع الظلمات .. ألا يفتقد الناس البدر فى حوالك الظلمات ، والليالى الدامسات ، لأنهم يأنسون بنوره ، ويستهدون بضيائه ؟ كذلك عظماء الرجال نشعر بفضلهم ومكانتهم ، حين لا يقدر غيرهم على ملء فراغهم ..

ألست ترى معى أن « أبا فراس » يريد أن يشبه نفسه – فى هذا البيت – بالبدر ، تعرف مكانته ومنزلته فى الحنادس الداكنة ؟ إنه تشبيه طريف ، لم يسلك به الشاعر المسلك المعهود بأن يأتى فى الأسلوب بمشبه ومشبه به ، ويصوغهما فى قالب تشبيهى اصطلاحى .. إنما التشبيه – فى بيت أبى فراس – يستنتج استنتاجا ، ويلحظ لحظا ، ويفهم من سياق العبارة فهما ، وهذا ما يعرف بأنه « التشبيه الضمنى » ، لأنه يستنبط تلميحا لا تصريحا ، وهذا النوع من التشبيه ، يؤتى به – عادة – للبرهان على صحة حكم ، أو للتدليل على دعوى ، بأنها ممكنة ، وخاصة عندما تكون أمرا غريبا ، يستبعد تحققه ، فيورد الأديب فى كلامه ما يزيل غرابته ، ويجعله ممكنا عاديا ، تجرى به نواميس الأشياء ..

ومن قبيل التشبيه الضمنى : قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وعهدك بهذا البيت غير بعيد ..

ومن ذلك أيضا : قول أبى تمام :

وإذا أراد الله نشـــر فضيلـــة طويت أتاح لهـــا لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرْف العود

فأنت ترى أبا تمام : قد شبه فضائله التى نشرتها الوشاية والنميمة ، وجعلتها تذيع بين الناس ، على الرغم مما فى الوشاية من الأضرار والمساوئ : بالعود لا يفوح شذاه ، ولا يعبق ريّاه ، إلا إذا اشتعلت فيه النار ، وفى النار إحراق وإيذاء ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من ترتب النفع على محاولة الضرر ..

والتشبيه فى البيتين : ضمنى ، كما هو ظاهر ، حيث لم يُعبر عنه بالطريق الصريح المنبئ عن التشبيه ..

ومن التشبيه الضمنى : قول « الفرزدق » يفخر على « جرير » :

فادفـع بكفك إن أردت بناءنـــا ثهلان ذا الهضبات هل يتحلّل ؟[1]

فالشاعر — وهو يفخر ويهجو جريرا — يتحدث عن المجد القبلى له ، ومدى ما كان يتمتع به قومه من سيادة ومنعة ، فلم يهنوا ولم يضعفوا ، ولم يستطع أحد أن يناله بسوء ، فهم كالطود المنيف لا يهتز أمام الأنواء ، ولا يميد فى مواجهة الأعاصير ..

فالشاعر يريد أن يشبه مجد قومه فى ثباته وعلوه بجبل « ثهلان » ، ولكنه لم يأت به على طريقة التشبيه المعروفة ، فهو تشبيه ضمنى — كما لا يخفى —

بقى أن نقول : إن التشبيه الضمنى أدخل فى باب البلاغة ، لأنه يتعامل مع

---

(١) ثهلان : جبل بنجد ، يحلحل : يتحرك .

القرائح المتوقدة ، والعقول المتوهجة ، فإدراكه ليس ميسورا إلا على أولى الفهم والحجا ، لأنه تشبيه محجب ، يتطلب قدرا من الذكاء والألمعية ، ونصيبا من الحذق والشفّافية ، لما يتضمنه من حكم قد يكون غريبا ، وإن شئت فاقرأ قول أبى تمام :

يأيهــا الملك النائـــــى برؤيتـــه   وجــوده لمـــراعى جــوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا   إن السمــاء ترجّى حـين تحتجـب

التشبيه
بين الحقيقة والمجاز

كان التشبيه من القضايا البلاغية ، التى تناوشها الخلاف ، وغشيتها المذهبية .. ومن الطبعى أن يكون الخلاف منصبا على حيثية معينة ، وأن يكون لكل رأى ما يدعمه من الأدلة والبراهين .. وعلى الرغم من أن العلماء قد أطبقوا جميعا على فضل التشبيه ومكانته من البلاغة ، إلا أنهم قد تباينوا فى نظرتهم إلى التشبيه ، من حيث كونه مجازا أم حقيقة ، وجاءت آراؤهم فى ذلك : تصوّر فكرا ثاقبا ، وتأملا حصيفا ، وتمرسا عاليا لأساليب البلاغة ، ومعطيات البيان .. فهل التشبيه حقيقة أم مجاز ؟

إليك موجزا لما دار بين العلماء فى هذا الشأن :

ذهب فريق ويتزعمه إمام البلاغة « عبد القاهر الجرجانى » : إلى أن التشبيه حقيقة : وتراه يقول فى ذلك : « إن كل متعاط لتشبيه صريح ، لا يكون نقل اللفظ من شأنه ، ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت : « زيد كالأسد » و « هذا الخبر كالشمس فى الشهرة » و « له رأى كالسيف فى المضاء » : لم يكن نقل اللفظ من موضوعه ، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون فى الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهو محال ، لأن التشبيه معنى من المعانى ، وله حروف وأسماء تدل عليه ، فإذا صرّح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه : كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى »[1] ..

وجاء بعد « عبد القاهر » مَنْ نهجوا نهجه فى هذا السبيل ، ومنهم : « فخر الدين الرازى » و « المطرّزى » و « السكاكى » و « القزوينى » .. وغيرهم ... ودليلهم على أن التشبيه حقيقة : أن المجاز استعمال اللفظ فى غير موضوعه

---

(1) أسرار البلاغة ص [illegible]

الأصلى ، وقولنا : زيد كالأسد ، مستعمل فى موضوعه الأصلى ، فلهذا لم يكن معدودا فى المجاز .. »[١] ..

وذهبت جماعة أخرى : إلى أن التشبيه مجاز ، وقد صرح بذلك ابن رشيق فقال : « والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع ، وما لم يكن محالا محضا فهو مجاز ، لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام : داخلة تحت المجاز .. » ..

ثم يقول بعد ذلك : « وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز : فلأن المتشابهين فى أكثر الأشياء ، إنما يتشابهان بالمقاربة والاصطلاح لا على الحقيقة .. »[٢] ..

وممن وافق ابن رشيق فى مذهبه : « ابن الأثير » ، فقد قرر : « أن الذى انكشف له بالنظر الصحيح : أن المجاز ينقسم قسمين : توسع فى الكلام ، وتشبيه ، والتشبيه ضربان : تشبيه تام وهو أن يذكر المشبه والمشبه به ، والتشبيه المحذوف وهو أن يذكر المشبه به دون المشبه ، ويسمى « استعارة » ... وإن شئت قلت : إن المجاز ينقسم إلى توسع فى الكلام ، وتشبيه ، واستعارة ، ولا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة ، فأيها وجد كان مجازا .. »[٣] ..

وحجة ابن الأثير : أن التمثيل إذا كان معدودا فى المجاز فى نحو قولنا : « فلان يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ، يقال للمتحيّر فى أمرٍ — فهكذا حال التشبيه أيضا » ..

تلك آراء الفريقين ، وحجج كل منهما ، ولكل وجهة هو موليها .. وسواء كان التشبيه حقيقة أم مجازا ، فهو — دون ريب — عمود من أعمدة البلاغة ، وركن من أركانها ، وأداة بيانية لها جمالها وطرافتها ، ولها بهاؤها وعمقها ..

---

(١) الطراز جـ ١ ص ٢٦٥ .
(٢) العمدة ص ١٧٨ — ١٨٠ .
(٣) المثل السائر جـ ٢ ص ٧١ .

لكن الذى يميل إليه الخاطر ، هو أن التشبيه من قبيل الحقيقة – كما قرره الإمام عبد الظاهر وأصحابه – لأن الأدلة تظاهرهم ، والبراهين تساندهم ...

وإلى هنا نطوى صفحة باهرة من صفحات علم البيان ، تمثلت فى التشبيه ، بصوره الأخاذة ، وتراكيبه الساحرة ، وألوانه الآسرة ، التى تمتع العقل ، وتشعل الفكر ، وتلهب الخيال..

وحان لنا – الآن – أن ننتقل إلى صورة أخرى من علم البيان ، أكثر إشراقا ، وأبهى رواء ، وأعظم إيناسا ، وأملأ بلاغة ، وأفخم جزالة .. إنها الاستعارة ، أحد فرعى « المجاز اللغوى » .. فإلى هناك ..